



قد خلق الله جل وعلا الخلق لغاية عظمى هي تحقيق العبادة له وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

وقد عرَّفَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى العبادة بتعريف جامع؛ فيقول: [العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلوة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين... وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإتابة إليه، وإخلاص الدين له...]. (1).

فهذا التعريف الجامع يَبْيَنُ لنا أن العبادة تنقسم إلى قسمين: 1- أقوال وأعمال ظاهرة، وهي العبادات البدنية. 2- أقوال وأعمال باطنية وهي العبادات القلبية.

فكل عبادة من العبادات لها ظاهر وباطن؛ فالظاهر قول اللسان وعمل الجوارح، والباطن هو قول القلب وعمل القلب، وكلاهما داخل في مسمى تلك العبادة، كما أنه - أيضاً - سبب في الأجر، والتقصير بأحدهما تقصير في العبادة نفسها، كما أن كمال تلك العبادة مرتبط بكمالها ظاهراً وباطناً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [الأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب] (2) ، فمثلاً الصلاة لها ظاهر وهي الأركان والواجبات والسنن، ولها باطن وهو الخشوع والإيمان والإخلاص وغيرها.

* العادات القلبية : هي أعمال القلوب كالمحبة والشوق والخوف والرجاء والإخلاص والصدق والخشوع والخضوع والتضرع والتواضع وغيرها.

أهمية الأعمال القلبية :

يظن فثام من المسلمين أن أعمال القلوب من فضائل الأعمال ومستحباتها، فمن قام بها فله أجر ومثوبة، ومن قصر فيها فلا شيء عليه ، وهذا مما يبين لنا سبب التقصير والخلل عند كثير من الناس في تعلم أعمال القلوب وتمكيلها والقيام بها، كما يسعى أحدهم في تعلم وتمكيل والقيام بأعمال الجوارح.

يقول ابن القيم رحمة الله تعالى عند بيانه لوجوب أعمال القلوب: [فإن العبد كثيراً ما يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها، فيكون مقصراً في العلم، وكثيراً ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها إما كسلاً أو تهاوناً، وإما لنوع باطل أو تقليداً، أو لظن أنه مشتغل بما هو أوجب منها، أو لغير ذلك] (3).

ولكي يتبيّن لنا أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم؛ سأذكرها بعون الله في عدة نقاط :

1 - أن أعمال القلوب واجبة على كل مسلم كما تجب عليه أعمال الجوارح، بل إن أعمال القلوب أشد وجوباً من أعمال الجوارح وآكد منها.

يقول ابن القيم رحمة الله تعالى: [فواجبات القلوب أشد وجوباً من واجبات الأبدان وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من باب الفضائل والمستحبات، فتره يتحرّج من تركِ واجب من واجبات الأبدان، وقد ترك ما هو أهّم واجبات القلوب وأفْرَضَها، ويتحرّج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريمًا وأعظم إثمًا] (4).

2 - إن قيام العبد بأعمال القلوب - بتوفيق الله - سبب للثواب، والتقصير والتفرط فيها قد يكون سبباً للعقاب في الدنيا والآخرة، كما هو الحال في أعمال الجوارح.

أما في الدنيا فالثواب عليها يكون بقبول الطاعات، واستجابة الدعوات، والطمأنينة والفرح في القلب والتوفيق للحق والثبات عليه وغيرها ، وأما العقوبة فقد تكون حسية أو معنوية وذلك بعد عدم قبول الطاعات، أو حرمان التوفيق لها، والضيق والضنك في القلوب وغيرها.

يقول ابن الجوزي رحمة الله تعالى: [وربما رأى العاصي سلامه بدنه وما له فظن أنه لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة. وقد قال الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة. وربما كان العقاب العاجل معنواً، كما قال بعض أحبّار بني إسرائيل: يا ربِّ كم أعصيتك ولا تعاقبني؟ قيل له: كم أعقابك ولا تدرى، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟] (5).

وأما في الآخرة فإن الله تعالى يقول: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}، ويقول جل شأنه: {يَوْمَ تُبَلَّى السَّرَّائِرُ}.

3 - إن العادات القلبية هي الأصل والعادات البدنية تبع ومكملة لها؛ إذ إن العادات القلبية روح العادات البدنية. يقول ابن القيم رحمة الله تعالى مبيناً أهمية أعمال القلوب في حديثه عن النية وأهميتها: [وإنما هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبعٌ ومكملة و مُتممة ، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد والأعضاء ، الذي إذا فارق الروح فموات ، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث . فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها] (6).

4 - تفاضل العباد عند الله تعالى بتفاضل ما في قلوبهم من أعمال القلوب، قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءِكُمْ} ، وأصل التقوى عمل القلب، قال صلى الله عليه وسلم: "التقوى هاهنا" ويشير إلى صدره ثلاث مرات (7).

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبها...). (8).

وقال أبو بكر المزني رحمه الله تعالى: (ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء كان في قلبه). (9).

وعمر بن الخطاب رغم أن إسلامه كان متأخراً بالنسبة للعشرة المبشرين بالجنة؛ إذ كان إسلامه في السنة السادسة منبعثة إلا أنه تقدم على غيره سوى أبي بكر الصديق، وقد أفاد شيخ الإسلام عن ذلك بقوله: [وكان عمر لكونه أكمل إيماناً وإخلاصاً وصدقأً ومعرفة وفارسة ونوراً أبعد عن هوى النفس وأعلى همة في إقامة دين الله، مقدماً على سائر المسلمين غير أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين]. (10).

5 - تفاضل أعمال العباد عند الله جل وعلا بتفاضل ما في قلوبهم من أعمال القلوب، فقد يعمل الرجالن عملاً واحداً والفرق بين عملهما عند الله كما بين السماء والأرض، لتفاضل ما في قلبيهما من أعمال القلوب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: [إإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض]. (11).

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: [والله يضاعف ذلك بحسب حال المنافق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقة وقدرها، ووقعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقه]. (12).

6 - إن القلب وما فيه من أعمال القلوب هو محل نظر رب تبارك وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم". (13).

7 - القلب كالملك، والجوارح كالجنود التابعة له، فصلاح القلب تصلح الجوارح بالعمل الصالح، وبفساد القلب تفسد الجوارح بالمعاصي ، قال صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضفة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب". (14).

8 - إن لذة العبادة والطمأنينة فيها والأنس بها، وقرة العين، وراحة النفس وانشراح الصدر لا تكون إلا بتحقيق أعمال القلوب أثناء القيام بتلك العبادة؛ لأن أعمال القلوب هي روح أعمال الجوارح، وبالروح تكون اللذة والطمأنينة والأنس، وإن فارقتها فأعمال الجوارح موات لا روح فيها ولا لذة وطمأنينة ولا أنس.

= يتبع الجزء الثاني إن شاء الله

(1) مجموع الفتاوى (10/149).

(2) المصدر السابق (11/381).

(3) إغاثة اللهفان (2/924).

(4) إغاثة اللهفان (2/924).

(5) صيد الخاطر ص(84) تحقيق أبي أنس سيد بن رجب.

(6) بدائع الصنائع (3/1140).

(7) رواه مسلم رقم (2564).

(8) شرح العقيدة الطحاوية ص(546).

(9) نفس المصدر

(10) مجموع الفتاوى (10/304).

- (11) منهاج السنة (222-6/221).
- (12) أعلام الموقعين (1/238).
- (13) رواه مسلم رقم (2564).
- (14) رواه البخاري رقم (52)، ومسلم رقم (1599).

المصادر: